

## من أين أبدأ يا فتح الرحمن ؟

مما صغته مسبقاً أبدأ بداية بلا نهاية...أبدأ بالجذور، مرتقياً  
لعلوكم يا رفيقي...فأنت الآن فوق فوقي...وفوق مقام ساحات ظني  
بربي، الذي اصطفاك لقربه...فأنت دائماً الأفضل...لم تتوقف  
المسيرة التي بدأنا خطواتها، منذ نعومة الأظفار... كما لن تتبدد  
روابط وجداننا، رغم بعادك المقدر... بل ستظل في خلدنا  
دوماً... تحرك فينا لساناً طرياً صادقاً...تتقاذفه الدعوات الطيبات،  
لكم... ملؤه المغفرة.. والقبول.. والنزل الكريم، عند رب غفور  
رحيم... دعني يا رفيقي، أبدأ متحسناً جذوري التكلي... التي لا  
تزال تنبض بعدكم بكل ما هو عند الله مقبول...

فمن باب الحكمة الإلهية... والتوزيع العادل لقبيلة النباتات..  
وفصائلها، وأنواعها المتعددة... كما أشار لذلك علماء الأحياء...  
على ظهر الأرض، التي أصبحت مهذاً لكل مخلوقاته الحية.. من  
نبات وحيوان.. في جميع أنماطهم.. وأشكالهم.. وألوانهم.. وميزاتهم  
التي تحدد نشاطاتهم الحيوية المتنوعة... وتبين أهداف ما قد خلقوا  
من أجله.. وتوضح أنواع العلاقات.. وطرائق المعاشة بينهم، في  
تقنية عالية.. توحى بقوة الإرادة الإلهية.. التي بسطت هيمنتها  
التامة.. تلك التي لا يشوبها الخل ولا الخور.. للمستطلع وللمتقصي  
للحقائق.. يتضح الأمر جلياً، في إدراك التفاوت.. والاختلاف..  
والتنوع، في ما بين أفراد الخلق من نبات وحيوان.. فهو قلما يقف

على اتفاق تام.. أو تشابه كامل.. بين هؤلاء الأفراد، من نبات أو حيوان أو بشر (أرقى الحيوانات وأرفعها قدرًا)...

لكنّ بعضاً من الصفات والمميزات.. قد تتقارب في ما بينها من أوجه شبه غير متطابق.. حتى في التوائم البشرية التي نسميها بالمطابقة... التي ندرك أن أصلها واحد، أي أنها ناتج انقسام بويضة واحدة.. تم تخصيبها بحيوان منوي واحد...

لننظر في تمعن تام.. وفي دقة متناهية، لأي توأم متطابق من بني الإنسان.. فلوهله الأولى نحس بأنهما متشابهان تماماً.. إلاّ أنّه وبالتدقيق اللصيق.. سنطالع بعض الاختلافات بينهما.. في التكوين العام لجسديهما.. هذا فقط مما نستوحيه من الجانب الحسي.. فما بالك في غير ذلك من الصفات، غير الحسية المنظورة، والتي تتعلق بالسلوك العام.. والتميز في النشاط الحياتي.. الذي تختلف فيه المورثات الجينية.. والتعدادات البيئية.. والتأثير الاجتماعي.. وتبديلات المجتمعات واختلافاتها، حسب العادات.. والتقاليد.. والموروثات الثقافية.. والتقلبات المناخية.. والتضاريس الأرضية.. والمتباينات الاقتصادية.. من شح ومن دعة في العيش، والانتماءات الدينية العقديّة.. وما يتداخل من انتماءات، وروابط، وتشدد، وتعدد.. إلى جانب الكثير من تغيرات مواقف الحياة.. التي كم شئت مآل البشرية.. و أفرزت منها أكواماً من السلوكيات.. والمعارف، ما فتئت تلمم ما قد فات منها وتلاشى.. هدرًا ، ناوية الرجوع المستعصي، لما بدأ الله به الغرض من خلق الإنسان.. في قوله تعالى:

(وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون)...

صدق الله العظيم.

(الزاريات آية 56)

في ظل هذه المفارقات الحياتية... مستعصية التوأم،  
وصعبة التطابق... توافدت إليّ بعض من المتشابهات،  
والمتناظرات، التي أملت عليّ إسباغ النظر في كينونتها... وفي سر  
وجودها المتفرد.. وعلى قلته... في مسارات حياتنا المتباينة...

بدأت أدرك المثيلات المتشابهة، في نظري، بين شخصين  
من خاصة أهنا.. في (شبهشة)، أراد الله لهما أن يكونا رقيقين.. في  
درب من دروب الحياة الشائكة.. المتمددة، طيلة عمريهما، وذلك  
بما أتاحه الله، وغرس في نفسيهما... صفات، وغرائز، تكاد تكون  
موروثة.. و مورثة من أصولهما المتقدمة.. وليست تلك الأصول  
التي يحكي عنها السلف...

تتناسب أوقات ميلادهما... و أكاد أجزم أنهما ولدا ساعة  
ما كانت السماء تمطر.. مبشرة بالخير والنماء... أو ساعة غيمة  
رطبة تتهاذى بظلالها الوارفة... نحو داريهما، مبشرة بقدم أخوين  
متمائلين.. لا يشبهان أحداً من الخلق.. بعد محمد صلوات الله  
وسلامه عليه.. إلا نفسيهما، فهما يجلان اسمين كريمين (محمد

والبشير)... وهما من أسماء النبوة... لأعظم خلق الله على الإطلاق... لنبينا الكريم، عليه أفضل الصلاة والتسليم محمد بن عبد الله....

بإذن منك قارئ الكريم... دعني أورد فيما يلي بعضاً مما لمستته فيهما من مميزات.. كادت أن تكون واحدة... ناتج قالب نضيد زاهي.. أحكمت مقاييسه في إبداع خلقي.. لا تغشاه العشوائية من قريب أو من بعيد... تزينه فعال سامية.. تصطف والمثالية على صعيد واحد.. وتتقافز معانيه الطيبة، في توارد سلس لطيف.. كم أصلحت حالاً مائلاً.. وكم جبر بها كسر طال أمر شفائه..

دخلت على والدي (محمد ود العماس).. ساعة استراحة، تخلل وقتها تتابع أداء نشاطات من الحياة تميزت بالديمومة... لا تتوقف إلا عند ساعات المنام.. القليلة ليلاً، التي تتوسد وسادة لا تعرف لذة الارتخاء.. أو لذة الأحلام، التي قد تحتاج لتفسير.. غير التفسيرات المتعارف عليها، في ذلك الزمان السمج، (وقت لم نكن نعي أو نفرق ما بين الرؤيا والحلم فكلاهما في شرعتنا واحد)..

إن رؤية الماء في المنام مثلاً.. يقابلها في التفسير الخير والبشر.. وكذلك الخضرة والبياض، أما رؤية النار.. والدماء.. واللون الأحمر.. في المنام أيضاً، فهي تنطوي على مظاهر الشر والاستعازة.. وكثيراً ما يتجاوزها الناس في موطني (شباشة)، ويتحايلون عليها بتفسيرات مرضية.. ويصفونها بما يعني (أضغاث

أحلام)، ويمكن تفسيرها (إنّ نمت شبعان وبس).. أما مثل الحلم الذي تظهر فيه (اللّمة).. والأكل بأنواعه .. وأكل اللّمة بالذات.. فهي التي يتعارف الأهل على تفسيرها بالموت.. فتصبح تفسيراتهم دائماً مبنية على جملة واحدة تقول: (ربنا يستر ربنا يجب فيها خير ويكفينا الشر).. يقولون ذلك وقد ملأ قلوبهم الخوف.. والتوجس.. والطواف على منازل (المرضّانين).. من الأهل من غير إيضاح للأمر.. أو إفصاح عنه.. إلّا من بعد (وقوع الفاس في الراس)..

هناك ما يطرق أبواب الأحلام... من الدواب.. ومن الزواحف.. كالثعابين.. والتماسيح.. وهناك العقارب.. وبقية الحشرات الضارة.. وهناك أيضاً (البعايت).. والسحرة.. والشياطين.. و (أبكباس)..

في جانب آخر.. تشرق حول المحتلم أضواء الصفاء.. كالالتقاء بالصالحين... من الخلق، والذاكرين.. والعابدين المخلصين.. في سرهم.. وفي جهرهم.. ومن أمثال العارفين بالله.. والحافظين لحدوده.. والبارين بوالديهم.. والعافين عن الناس.. كأمثال أبي.. ومن وجدته جالساً معه.. أثناء جلسة الاستراحة تلك التي أشرت إليها مسبقاً، من قبل.. أن (يسرقني الحديث فهو فعلاً ذو شجون)...

أتدري قارئ العزيز من ذلك الذي وجدته في مجالسة أبي؟ إنّه صنوه وشبيهه.. وهو النصف الثاني.. كما صورته مرآتي التي

أظهرت لي.. كل أوجه التشابه.. من غير (مونتاج أو خدع  
تصويرية)... كان جليس أبي هو:

### الخال (بشير ود الشفيح ود مصباح)

هذا هو المقصود في حديثي منذ بداية المقال.. أخذتني  
الحياة في معيته دهرًا طويلاً.. واستطعت أن أتغلغل في دواخل ذاته  
وأتربع.. و (أكوع.. مبسوطاً أنشد، وأترنم، وأقوي كمان).. بمثل  
ما تعلمته منه.. عرفته كما يعرفه المقربون منه.. وكما يعرفه  
أبنائه.. كان خالي (بشير ود الشفيح).. ذكياً لامحاً.. لا تتعثر  
الكلمة الطيبة أبداً.. كي تباح شفتيه.. ولا تتعنت على الإطلاق  
عندما يأمرها.. أن تصطف مع رفيقاتها.. في تكوين، وتلوين، شطر  
أو بيت من الشعر.. في منامه أو في صحبانه.. كان بشير خالي،  
مثالاً يحتذى في الجدية.. و المثابرة.. وتفعيل الإرادة.. وإهانة  
النفس..

إنه مأخوذ بالتفاني والإخلاص، في عمله، وفي تربية فلذات  
أكباده.. أعرف كم كان صبوراً، ونقي السريرة.. كان لا يتخطى  
الخطوط الحمراء، إلا عندما يتطلب الأمر ذلك.. فهو لا يحتمل  
الدونية والانزواء.. وأجمل قولي وأقول:

(إنه كان قمرًا بل شمساً شملتنا بذاخر ضوئها ودفئها على

(الدوام...)

ألم أقل إنه وأبي كانا رفيقين.. يتشابهان في الكثير من  
الصفات إن لم تكن كلها، فجلاها... رحمهما الله.

أورد فيما يلي بعض ما كان يجمع بينهما مما أشارت به  
خطوات المسيرة الحياتية لديهما...

كانا صوفيين كاملين متلازمين.. تلقيا الطريقة من قطب  
زمانه الشيخ عوض الله ود النمير في شبشة....

كانا شاعرين يجيدان نظم القصائد الصوفية التي تتعلق  
بمنهج الطريقة السمانية، في ذلك الوقت، المشبعة بكثير من  
الإشارات.. التي تبرز سيرة شيوخهما.. ومن حزا حزوهم...

كانا سوياً يعمران حلقات الذكر في (مسيد الشيخ أحمد ود  
الشيخ عوض الله بالصفيرية).. وفي مسيد الشيخ عوض الله  
بشبشة.. في كل المناسبات والأعياد.

تجدهما سوياً في أداء (القصيد) خارج حابة الذكر... في  
مجموعات من الفقراء (الحيان).. يستخدمون (العصي) بكسر العين  
والصاد.. جمع عصا... بدلاً عن (الطار)، وذلك (بنقر) عصاً  
مطروحة على الأرض.. ب.. (العصي) الصغيرة.. فتلامس  
(العصي) مع بعضها.. يبعث بأنغام إيقاعية آسرة.. تبرز جمال  
تشطير أبيات القصيد.. وتفيد معانيه...

لقد ترك كلا الشاعرين.. حصيلة كبيرة من القصائد.. تم  
ضمها في دواوين.. منها ما نشر ومنها ما هو قيد النشر...

أذكر من قصائدهما... المتشابهة في المقصد والمعنى..  
من وحي التطابق، الذي ذكرنا، يقول خالنا (بشير).. في مطلع أحد  
قصائده:

في قوزك هناك... دايرين الوصول،

سلمنا القياد...

رمينا الحمول.

ويقول والدنا (ود العماس):

شتل حوزو... بدري في قوزو،

ثمار نخلو..

والتين والموزو.

لننظر هنا ونتطلع.. كيف كان (القوز)، مصدر الخير  
لديهما، هو المبتغى.. وهو (القوز) الذي تقيم عليه قرية  
(الصفيرية)... حيث يقطن (الشيخ أحمد ود الشيخ عوض الله)  
وأتباعه الأوفياء.

وغير ذلك الكثير من القصائد... ذات التطابق في المعنى  
والمقصد فمثلاً:

قال والدنا (ود العماس) في إحدى قصائده:

البرق الشال...

والسحب المال،

و(الألمي) السال...

شوف أهل الحال.



وقال خالنا (بشير) في مطلع إحدى قصائده:

بروق الليل اختلفن...

طرني وجوهاً سلفن،

يا عاشق السادة...

من هنا يبدو لنا أنّ البرق بات إلهاماً لهما... في إنشاء القصائد، وترتيبها... صوفياً، حتى تتواكب مع المعنى المقصود والهدف المنشود.

كانا تاجرين.. في مجال تجارة محدودة.. تتمثل في النشاط (الكتيني).. فكلاهما يمتلك (كتينياً) صغيراً في منزله.. برأس مال ضعيف، فهو ومن منظورهما الخاص.. فما يجنيانه من أرباح (الكتين) يساعد كثيراً في (المعاش).. بمحدودية مقنعة لكليهما.

كانا يتنقلان ب..(الكتينين) من موقع لآخر، تنقلاً موسمياً، إلى مشروع التجاني حمودي.. أثناء موسم الحصاد.. حيث يتجمع (نقاط القطن)... من أصول (الماجدية الجعلين).. القادمين من مناطق (الشقيق).. غربي منطقة النيل الأبيض.. وهناك أيضاً من (اللقاط) من ينتمي لمنطقة (أم جداد) نواحي العرشكول...

هؤلاء (اللقاط) هم الزبائن المعتمدون.. لكلا (الكتينين).. كل ينال حظه ورزقه.. من حركة البيع والكسب الربحي.. من غير تنافس، ولا حسد.. يعتمد رفيقا الدرب.. موضوع مقالنا هذا، في مساعدتهما في القيام بالأعمال (الكتينية) ابناهما الطفلان (عمر

وفتح الرحمن)... ويعد هذا نوعاً من التطابق والتشابه، فالوالدان يعتبران هذه المشاركة.. نوعاً من أنواع التربية.. والحفظ.. والتدريب.. لمجابهة ظروف النشاطات الحياتية المستقبلية...

كانا مزارعين من الطراز الأول.. فهما متمكانان بكل ما يتعلق بالزراعة... غرساً.. ورعاية.. وحصاداً.. كما يعتبران خبيران في كل ما يهم أمر الزراعة.. من تحسين لأساليبها، وتجنب لعدم نجاحها.. ومعالجة لأمراضها.. واستثمار لمنتجاتها... بشتى الوسائل العلمية.. وشتى أنواع الخبرات.. فقد أتاحت لهما معيشة طيبة.. وسط مواطنيهم، بل كانا متجاورين في مزرعتيهما.. فالمسافة بين حواشيتيهما (فركة رجل).. (يعني ما بعيدة)..

وتتمدد الجذور أمام الطفلين توجي بتقارب أكبر...

وهو الأمر الذي جعلني أذهب إلى شبشة.. من المشروع، بغية القبول في المدرسة الجديدة.. في معية خالي العزيز وابنه فتح الرحمن.. وقد أسلفت الحديث عن هذا الموضوع، في مواقف سردية سابقة... وكان من المصادفة الجميلة .. أنني وفتح الرحمن، قبلنا سوياً بالمدرسة .. في يوم واحد... ويعد ذلك أيضاً نوعاً من التطابق والرفقة..

جعل منا ذلك القبول أطفالاً أحراراً... إذ كل منا امتلاك (دحشاً) يخصه.. في التنقل من وإلى المدرسة.. وبذلك أعفينا أبويننا من مرادفتيهما على ظهر حماليهما.. الصبورين، فاعتقنا منذ تلك اللحظة.. من حمل حمولة زائدة... وهذا تطابق آخر.

وكانت حريتنا تلك.. بمثابة عيد لاستقلالنا.. يستحق  
الاحتفال به من وقت لآخر ..

كتطابق آخر ... لم يفتني بعد أن أذكر أنني وفتح الرحمن  
أخي.. قد درسنا سوياً في خلوة الشيخ أحمد ود الشيخ عوض الله  
في (الصفيرية)... من قبل دخولنا للمدرسة... تلك القرية الوادعة..  
والورعة.. التي ذهبت لها راجلاً وحدي للمرة الأولى.. غير أنني  
نسقت مع أخي فتح الرحمن لاحقاً.. أن نترافق ونمشي سوياً... من  
(شبهشة) إلى (الصفيرية) وبالعكس.. مرة واحدة في كل أسبوع...  
ذهاباً وإياباً، لا شك أن المشوار كان شاقاً، فالمسافة كانت بعيدة  
نسبياً.. لطفلين لم يدخلوا بعد في متاهات (الشقاوة) ...

كنت دائماً (أغشى) فتح الرحمن في منزلهم.. في الحلة  
القديمة.. الذي آلت ملكيته للمرحوم عبد الرحمن ود يوسف ود  
عربي، الملقب ب.. (جراد).. من بعدها نتجه وعن طريق  
(الردمية) غرباً... وذلك عند زوال شمس يوم الجمعة... لنصل  
(الصفيرية) عصرًا.. محاشاة للساعات سوط الفكّي (إديس) عليه  
رحمة الله.

في تطابق آخر... تلقفتنا المدرسة كما أسلفت.. وكنا قريبي  
المستوى التحصيلي أثناءها... ففي نتيجة أول امتحان لنا بالمدرسة  
كنا نحن الاثنين... من ضمن الخمسة الأوائل في الترتيب...  
وأذكر أن أخانا (الصديق المبارك جار النبي)... كان في الترتيب  
الأول...

مضت بنا مسيرة الحياة أنا وفتح الرحمن، إلى الأمام، وقبلنا  
سويًا بالمرحلة المتوسطة... ومن ثم عملنا في أشرف المهن.. مهنة  
الرسل، عملنا كمعلمين.. ولا زال الحال بنا حتى لحظة انتقاله  
للرفيق الأعلى... لم نستغن عن هذه المهنة الشريفة، وذلك من غير  
أي تنسيق تم فيما بيننا.. لمزاولة هذه المهنة، لكنى أرفع الأمر لما  
توطد بين الأبوين من صلوات.. وتشابه.. في أمرهما الحياتي  
المتجانس... الذي قادنا إلى هذا التشابه بين الأبناء.

أعود اليوم وحيدا يا أخي... أموت مراراً... وأحيا مراراً...  
وليس سوى الذكريات الطيبات... والقلوب الدامية... والمآقي  
الدامعة... ما يشغني عن الدعاء لكم...

ألا طيب الله مقامكم يا أخي... يا فتح الرحمن... وأكرمكم  
حيث لا كريم غيره هناك... في الدار الباقية... فإنك خير من تكرم يا  
رفيقي... أمضيت عمرك كله تنتقل ما بين الكتب.. والكراريس..  
والتلاميذ.. والمربين، تقدم الخير.. وتتشد الأجر.. من الله، نسأله  
الذي لا يحاط كرمه.. ولا تتوقف رحمته..

أكرمه يا كريم وتقبله قبولاً حسناً بإذنك يا الله.

د/ عمر محمد العماس

[www.omerelammas.com](http://www.omerelammas.com)